التاريخ الروسي والمناظرات حول الاستشراق(*)

بقلم: أديب خالد(**)
ترجمة: بثينة هاشم ياسين(***)

وصل نيكولاي بتروفيتش أوسترومو‌ف Nikolai Petrovich Ostroumov إلى (طشقند) في عام ١٨٧٧م لتولِّي منصب مدير المدرسة التي أُنشئت حديثاً في مقاطعة تركستان، بتوصيةٍ من المُبشِّر والمُستشرق الكازاخستاني الشهير نيكولاي ايفانوفيتش المينسكي Nikolai Ivanovich Il'miniskii، الذي كان أوسترومو‌ف طالباً لديه، إلى الحاكم الجنرال كونستانتين بتروفيتش فون كوفمان Konstantin Petrovich von Kaufman. كان أوسترومو‌ف قد دَرَس الإسلام واللغة التركية، ومعرفته تلك سرعان ما جعلته موضع ثقة كوفمان. احتفظ أوسترومو‌ف بهذا القُرب من السلطة طِوال فترة الحكم القيصري. خدم أوسترومو‌ف الدولة بكلِّ ما أُوتي من سِعةٍ حتَّى عام ١٩١٧م. في عام ١٨٨٣م تمَّ تعيينه محرراً لجريدة Turkiston viloatining gazeti، وهي الجريدة المحلية الرسمية، والتي سعى من خلالها إلى تشكيل معالم المناظرات الثقافية المحلية باتجاه مصالح الدولة الروسية. عَمِل أوسترومو‌ف بمثابة الرقيب على المطبوعات باللغة المحلية، وكانت آراؤه في الشؤون المحلية عادةً مثار بحث من قبل المسؤولين المحليين(١).

في الوقت نفسهِ، أنتج مجموعةً هائلة من الكتابات الأكاديمية حول الأجناس البشرية لآسيا الوسطى والإسلام وتاريخهما، ترجم أوسترومو‌ف الكتاب المقدس إلى لغة الشاغاتاي (لغة مستخدمة في النثر التركي)، وكتب مطارحاتٍ معاديةً للإسلام باللغة الروسية، وتضمَّنت أوراقه البحثية الخاصة مُراسلاتٍ مع زملائهِ المستشرقين داخل روسيا وخارجها(٢)، وكتاباته تلك تقدم دليل دامغ على ارتباطهِ بالمؤسَّسة العالمية للاستشراق. إنَّ استخدام أوسترومو‌ف لسطوة معرفتهِ بالاستشراق وسهولة

(**) كلية كارلتون/ مينيسوتا/ الولايات المتحدة الأمريكية
(***) بيت الحكمة/ قسم الدراسات اللغوية والترجمية

تبنِّيه لخدمة الإمبراطورية يجلب إلى الذهن، بالطبع، أعمال إدوارد سعيد، الذي ناقش الارتباط الوثيق بين المعرفة والقوة في المؤسَّسة الإمبراطورية[٣].

كان نقد سعيد للاستشراق مؤثراً بشكلٍ كبير في العَقديـن الأخيريـن، ونتيجـةً للاهتمامات التي حدَّد الاستشراق ملامحها فقد أُعيد تعريف برامج البحوث في العديد من التخصصات بدءاً من النقد الأدبي مروراً بعلم الإنسان والتاريخ، ونظراً للتنوع الهائل في الإمبراطورية الروسية، فإنَّ الجدل حول الاستشراق يبدو وثيق الصلة بالساحة الروسية، مع ذلك وفي أحسن الأحوال تمَّ التعتيم على ردود الأفعال تجاه هذا الجدل، لقد استفاد بعض الباحثين في الدراسات الأدبية من النقاش حول الاستشراق لوضع الأدب الروسي في القرن التاسع عشر في سياقهِ الإمبراطوري[٤]، فيما تجنَّب بعض المؤرِّخين المشاكل التي أثارها سعيد.

تناولت بعض الأعمال المميزة في العَقد الماضي بالتمحيص المواجهات الاستعمارية في الإمبراطورية الروسية في إطار مقارنةٍ واسع، مستخدمةً رؤىً مُستمدَّة من دراسة إمبراطورياتٍ أوروبية حديثة أخرى[٥]. في الوقت نفسهِ لا يزال هناك عدم ارتياح كبير بشأن استخدام الأساليب التي تُضعف خصوصية تاريخ روسيا، لقد دَرَس ناثينيال نايت Natheniel Knight ربما في أول تفاعلٍ موسَّع مع مناظرة سعيد في الساحة الروسية، مسيرة مُستشرقٍ آخر من حدودٍ استعماريةٍ أخرى وعَقدٍ آخر، ليخلص إلى القول: «إنَّ الإطار الذي تقدَّم بهِ سعيد لفهم الاستشراق الغربي، إذا كان لا بدَّ من تطبيقهِ، يجب أنْ يكون تطبيقاً حذراً، خاصةً فيما يتعلَّق بالسياق الروسي»[٦].

في هذا المقال أسعى إلى اقتراح بعض الطُّرق التي تكون فيها الكثير من الأفكار الناشئة عن المُناظرة حول الاستشراق ذات صلةٍ بالفعل بفهمنا، ليس فقط لعلاقة روسيا بإمبراطوريتها، بل بروسيا نفسها إلى حدٍّ ما، أفعل ذلك بتقديم نقدٍ لمُناظرة نايت، التي لا أجدها مُلزمةً، على الرغم من أنَّ اهتمامي الرئيس يكمن في إعادة تأطير التاريخ الروسي من منظورٍ مقارنٍ أوسع، وأنا لا أكتب بوصفي مؤرِّخ لعِلم الأجناس الروسية، ولكن في المقام الأول بصفتي باحثاً في شؤون آسيا الوسطى، والتي لا مفر من قضايا التمثيل والسلطة فيها.

لا أتفق مع تبنِّي «نموذج" عالمي غير ممحَّص، ولكن من أجل اندماجٍ أكبر مع مجموعةٍ حيوية في عَمَلٍ متعدد التخصصات، والذي سيساعد في كسر بعض القيود المفروضة ذاتياً على كتابة التأريخ الروسي، وفي مثل هذهِ الاهتمامات يجب أنْ تكون المشاركة متبادلة، ممَّا يساعد على توضيح المفهوم نفسه بوضع الإمبراطورية الروسية في دائرة ضوء المقارنة، كما يجب أيضاً إنقاذ دراسات ما بعد الاستعمار من تركيزها الأساسي على أوروبا، الذي يأتي من كون الجزء الأكبر من أدبها من تجربةِ إمبراطوريتين فقط[٧].

سعيد والاستشراق

من وجهة نظر سعيد فالاستشراق هو مجموعة أشياء مختلفة، إنَّه نظامٌ أكاديمي يتخذ من دراسة الشرق موضوعاً له، وهو أيضاً «أسلوبٌ أوسع وأقدم للفكر، يستند إلى تمييزٍ وجودي ومعرفي بين الشرق و (في معظم الأحيان) الغرب، اللذين هما طرفان مترابطان"، مع الأخذ بنظر الاعتبار أنَّ فترة أواخر القرن الثامن عشر على وجه التحديد تمثل

تقريباً نقطة الانطلاق التي أصبح فيها بالإمكان مناقشة الاستشراق وتحليله، بوصفهِ مؤسَّسة معنية بالتعامل مع الشرق، من خلال الإدلاء بالتصريحات حوله والتحكم بآرائهِ ووضع وصف له ودراسته وتأطيره والتحكم بهِ، باختصار فالاستشراق بوصفهِ أسلوب غربي للهيمنة، وإعادة هيكلة الشرق، والسيطرة عليه[٨]. كان التمثيل والسلطة من الأفكار الرئيسة في عمل سعيد، حيث يدَّعي الاستشراق السلطة لتمثيل الشرق والشرقيين، ليس فقط «لأجل العمل»، بل لأجل الشرق نفسهِ. وعلى هذا النحو لن يكون هناك مشرقاً، بل هو نوع ما استشراق لأماكن حقيقية معقَّدة، وبالتالي فإنَّ الشرق هو نتيجة انقسام الواقع المعقَّد للإنسان وجوهرهِ، وبهذهِ الطريقة يقف الشرق خارج التاريخ الذي أصبح مرادفاً لأوروبا، فتداخَلَ الاستشراق مع تأكيد الذات الأوروبية بوصفها حاضرة التاريخ.

صحيحٌ أنَّ سعيد لم يُبدِ اهتمامًا كبيرًا بالمسار التاريخي لظهور الاستشراق، ولكنه أيضًا أمر غير قابل للجدل أنَّ ثنائية العالم القديم مقابل أوروبا والغرب مقابل آسيا والشرق الذي يعود إلى زمن الإغريق والشرقيين قد عَمِلت عمل «الآخر» الذي حددت أوروبا هويتها الخاصة أمامه، لقد تنوعت الطريقة التي انتشرت بها هذهِ الثنائية عِبرَ القرون تنوعًا كبيراً وهذا ما لا ينطبق على الشرق (الآخر)[٩].

في هذا الصدد، من المهم أيضاً أنْ نتذكَّر بعض خصوصيات الاستشراق (في مظاهرهِ الأكاديمية والمجازية)، كان الاستشراق يختص فقط بالحضارات المتعلِّمة في العالم القديم كما في الشرق الأدنى القديم والمملكة الإسلامية والهند والصين واليابان، ولم يكن لدى الاستشراق ما يقوله بشأن جنوب الصحراء الكبرى الأفريقية أو غير المُجنَّسين في أوراسيا والأميركيتين، (حيث يمثل بدو السهول التركية في أوراسيا آخر اهتمامات الاستشراق).

لم يكن الاعتراف بمجد هذهِ الحضارات يمثل مشكلةً للاستشراق، لكن هذا المجد كان قابعاً بأمانٍ في الماضي ولا يمكن الوصول إليه إلَّا من خلال النصوص الكلاسيكية، التي كانت تملك مفتاح فهم ماضي الشرق وحاضره المتردِّي، ولهذا كان فقه اللغة هو الأدب الرئيس في الاستشراق، وطالما أنَّ الوصول للشرق لم يكن مُتاحاً سوى من خلال هذهِ النصوص الكلاسيكية الموضوعة في سياقاتٍ شرقية مثالية، فلم يكن بمُستطاع الاستشراق جني فائدةٍ كبيرة من المناهج التي تمَّ تطويرها في عالم البحث الأوسع.

كانت العزلة التي فرضها الاستشراق على نفسهِ ذاتياً هو الآخر ملمح مميز له، (يجب أنْ تكون أوجه التشابه مع السوفيتولوجيا[*] Sovietology واضحةً لقُرَّاء Kritika في الواقع، إنَّ المُحاججة كون السوفيتولوجيا هي مجموعة متنوعة من

(*) الكرملينولوجيا Kremlinology: هي دراسة وتحليل للسياسات في روسيا، في حين أنَّ مُصطلح Sovietology يعني دراسة السياسات في الاتحاد السوفيتي والدول الشيوعية السابقة بشكلٍ عام. كان هذان المصطلحان مترادفين حتَّى تفكك الاتحاد السوفيتي (٢٦/ ١٢/ ١٩٩١م). في الثقافة الشعبية، يُستخدم المُصطلح أحياناً ليعني أيَّ محاولةٍ لفهم منظَّمة أو عملية سرية، مثل خطط المنتجات أو الأحداث القادمة، من خلال تفسير الأدلة غير المباشرة. [المحرر].
لمزيدٍ من التفاصيل، يُنظر:
Lawson, Eugene K., *The Sino-Vietnamese Conflict*, Praeger, 1984, pp.8–9.

الاستشراق يمكن أنْ تكون سهلةً للغاية).

إنَّ إخفاق سعيد في التمييز بين التخصصات والأجناس وإخفاء الرابط الواضح الذي يربط إنتاج المعرفة مع السلطة، كان مصدر القوة في مناظرتهِ، يَدين سعيد بالمنهجية لفوكو Foucault(*)، وغرامشي(**) Gramsic، وريموند ويليامز(***)

(*) يقصد بهِ: ميشال فوكو Paul-Michel Foucault (١٩٢٦-١٩٨٤م): الفيلسوف الفرنسي، الذي يُعد من أهم فلاسفة النصف الأخير من القرن العشرين، تأثر بالبنيويين ودَرَس وحلَّل تاريخ الجنون في كتابهِ (تاريخ الجنون) وعالج مواضيع مثل الإجرام والعقوبات والممارسات الاجتماعية في السجون. ابتكر مصطلح (أركيولوجية المعرفة) The Archaeology of Knowledge. أرَّخ للجنس أيضاً من (حب الغلمان عند اليونان)، وصولاً إلى معالجاتهِ الجدلية المعاصرة، كما في (تاريخ الجنسانية). [المحرر] يُنظر:

Crossley, N., "*The Politics of the Gaze: Between Foucault and Merleau-Ponty*", Human Studies, 1993, vol. 16, issue (4), pp.399-419; Alan D. Schrift, *Twentieth-Century French Philosophy: Key Themes And Thinkers*, Blackwell Publishing, 2006, p.126.

(**) يقصد بهِ: أنطونيو غرامشي Antonio Francesco Gramsci (١٨٩١-١٩٣٧م): الفيلسوف والمناضل الماركسي الإيطالي. والذي أصدر مع بالميرو توليتاي Palmiro Togliatti (١٨٩٣-١٩٦٤م)، عام ١٩١٧م، مجلَّة (النظام الجديد) Ordine Nuovo. [المحرر]. يُنظر:

Haralambos, Michael and Holborn, Martin, *Sociology Themes and Perspectives*, Collins, 2013, 8th Ed., pp.597–598.

(***) يقصد بهِ: ريمون هنري ويليامز Raymond Henry Williams (١٩٢١-١٩٨٨م): الفيلسوف، والروائي، والكاتب، والبروفيسور، وعالم الاجتماع، والناقد الأدبي البريطاني. [المحرر]. لمزيدٍ من التفاصيل، يُنظر:

Cevasco, Maria Elisa, *Para ler Raymond Williams (Portuguese of To Read Raymond Williams)*, São Paulo, Paz e Terra, 2001; Eagleton, Terry, editor. *Raymond Williams: Critical Perspectives*, Boston: Northeastern University Press, 1989; Ethridge, J. E. T., *Raymond Williams: Making Connections*, New York: Routledge, 1994; Gorak, Jan, *The Alien Mind of Raymond Williams*, Columbia, Missouri: University of Missouri Press, 1988.

Raymond Williams.

على الرغم من أنَّه يصف الاستشراق بالخطاب، إلَّا أنَّه يصر أيضاً على «إنَّ بصمةً حاسمة في مجموعة نصوصٍ مجهولة لأفراد من الكتاب كوَّنت شكلاً خطابياً مثل الاستشراق"[١٠]، ينبع هذا إلى حدٍّ كبير من قناعة سعيد الإنسانية، التي لا تتوافق دائماً مع استخدامهِ لمنهجية فوكو، والذي نتج عنها عدداً من المعضلات المفاهيمية.

وقد أشار النُّقَّاد المفكِّرون إلى هذهِ المشاكل وغيرها الكثير في مناظرة سعيد، مثل ميلهِ إلى إضفاء الطابع الجوهري على الخطاب الاستشراقي (والغرب)، والإفراط في تحديد العلاقة بين الاستشراق والاستعمار، وفي الوقت نفسهِ قام فريق عملٍ ضخم في العديد من التخصصات بتنقيح الكثير من رؤى سعيد، في الوقت الذي توسَّع نقده في العديد من الاتجاهات الجديدة، لقد حمل هذا الجدل القوي قدراً أكبر من المرونة والحساسية لمفهوم الاستشراق لاحداث تغيير تاريخي أكثر ممَّا تحقَّق في كتاب سعيد نفسه.

الاستشراق والإمبراطورية الروسية

في البدء يجب الاعتراف بتناقض سعيد تجاه روسيا، في الاستشراق، يُجادل سعيد مراراً وتكراراً بأنَّ «الجودة والاتساق وحجم الكتابات البريطانية والفرنسية والأميركية عن الشرق ترفعها فوق مستوى الأعمال الأساسية الموثوقة التي تمَّ إنجازها في ألمانيا وإيطاليا وروسيا وأماكن أخرى»[١١].

ويذهب إلى أبعد من ذلك، حين صرَّح ضمنياً بدون توضيح أكثر أنَّ الإمبراطورية الروسية كانت مختلفة: «فروسيا، على أيَّةِ حال، اكتسبت حدودها الإمبراطورية بشكلٍ حصري تقريباً بحكم الجوار، على عكس بريطانيا أو فرنسا، اللتين عبرتا آلاف الأميال خارج حدودهما إلى قاراتٍ أخرى، تحركت روسيا لابتلاع كلِّ ما يُجاور حدودها من أراضٍ وأُناس، واستمرت في التحرك أبعد وأبعد شرقاً وجنوباً»[١٢]. وعلى الرغم من أن مناظرة سعيد هنا تبدو في أضعف مواقفها الآن هذه الاستثناءات في توسع روسيا سمحت لسعيد بتقديم حجته الدامغة، وممَّا يُثير الاستغراب أنَّ القليل من الكتابات في المجال الروسي التي جادلت نقد سعيد قد استأنفت هذا التناقض، فيما ظلَّ ناثانيال نايت الذي حذَّر من أيِّ استخدامٍ لنهج سعيد في السياق الروسي، غافلاً عنه.

تدور حجَّة نايت حول تجربة مستشرق سانت بطرسبرغ فاسيلي فاسيليفيتش غريغوروف Vasilii Vasil›evich Grigor›ev في الخدمة الإمبراطورية في أورينبورغ Orenburg(*)، ثمَّ في قاعدةٍ حدودية في السُّهوب الكازاخستانية. كان غريغوريف يأمل أنْ يضع معرفته بلغات وثقافات الشعوب التركية في خدمة الإمبراطورية والمجد القومي الروسي. وقد جعله التزامه بـ(narodnost) ولفترةٍ طويلة قلقاً إزاء التأثير الألماني في الأكاديميات الروسية، وكان إنشاء تقاليد روسية أصيلة للاستشراق مسألةً قريبة إلى قلبِهِ.

كانت تجربته على الحدود مخيبةً للآمال، على الرغم من أنَّه تمتَّع بسلطةٍ كبيرة على الكازاخستانيين، إلَّا أنَّه لم يكن على توافقٍ مع المحافظين المحليين، الذين كانوا رجالاً عسكريين، لا يملكون سوى القليل من الصبر والاحترام لعلمية غريغوريف وفرضياتهِ في تقديم المشورة لهم في المسائل السياسية، وبعد عَقدٍ من الزمان استقال وعاد إلى العاصمة، في هذه الحالة أصبح لدينا (وفقاً لرأي نايت) مستشرقاً لا يتناسب مع طراز (انموذج الاستشراق) لذلك فهو لا يناسب روسيا، وهو في الواقع انموذجاً معيباً منذ البدء.

إنَّ القارئ المُدرك للتقليد القديم لنقد سعيد، الذي «تناوله النُّقَّاد.. مراراً وتكراراً،

(*) هي إحدى مدن روسيا وعاصمة الكيان الفيدرالي الروسي (أورنبرغ أوبلاست). تقع مدينة أورنبورغ على بعد أكثر من (١٥٠٠) كيلومتر عن موسكو في اتجاه الشرق، بمنطقة جنوب الأورال القريبة من الحدود مع كازاخستان. وأُسِّست المدينة عام ١٧٤٣م كقلعةٍ عسكريةٍ وقاعدةٍ لتحرك روسيا باتجاه آسيا الوسطى وكازاخستان، إنَّه تحركٌ ضدَّ التوسع البريطاني المتجه من الهند إلى أفغانستان وآسيا الوسطى، فسَعَت روسيا لمنع التغلغل البريطاني على الحدود المُتاخمة لها، وسرعان ما أصبحت هذهِ المدينة الروسية الجديدة، ما عدا وظيفتها الدفاعية، مركزاً تجارياً هاماً. وذلك بفضل موقعها الجغرافي الملائم وكونها نافذة تُطِل على بلدان آسيا الوسطى والشرق. [المحرر]، يُنظر الموقع الإلكتروني:
https://en.wikipedia.org/wiki/Orenburg

من مستشرقٍ من القرن التاسع عشر لا يتناسب مع هذا النموذج، ثمَّ إلى خبيرٍ معاصر يُبدي تعاطفاً مع الثقافات الشرقية ليُلمِحوا إلى أنَّ قضية سعيد قضيةً مَعيبة»[١٣]، سيتكون لديه الإحساس بأنَّ العجلة يتم اكتشافها مرةً أخرى، كما يوضِّح مثال أوستروموف Ostroumov، فإنَّ الاستشراق والقوة يمكن أنْ يتفاعلا بشكلٍ مُثمر في الإمبراطورية الروسية، نحتاج أنْ نتأهَّبَ للتغيير الحاصل في مفهوم روسيا للإمبراطورية عِبرَ الزمان والمكان، إنَّ الاستبعاد الشامل لأهمية الاستشراق بالنسبة للقضية الروسية استناداً إلى مثالٍ واحد ذنبٌ يُشابه التعميم الذي طالما اتُّهم بهِ سعيد، ولكن حتَّى فيما يتعلَّق بغريغوريف، يفهناك ما يدحض حجة نايت.

هناك ثلاث نقاطٍ في مُحاججة نايت أود أنْ أتفحصها عن كثب:

١. لم يتمكَّن غريغوريف من تحويل هذهِ التجربة الاستشراقية إلى ممارسةٍ للسلطة السياسية.

٢. كان الاستشراق الروسي أكثر توافقاً مع التنوع ممَّا هو عليه مع التقسيم الثنائي بين الغرب والشرق، ويُعزى ذلك نوعاً ما إلى توظيفهِ المفاهيم الدستورية للقومية.

٣. إنَّ انقسام الغرب والشرق ليس واضحاً في الحالة الروسية، بل تمَّ استبداله إلى حدٍّ ما بـ(ثلاثيٍّ مُضطرب).

إنَّ كون غريغوريف لم ينجح أبداً في اكتساب النفوذ والقوة السياسية اللذين كان يأملهما، يجب أنْ لا يجعلنا نتغاضى عن مدى رغبتهِ في ممارستهما، وأنَّه عَمِل لمدَّة عشر سنواتٍ على الحدود الإمبراطورية التي كان خلالها يتمتَّع بقدرٍ كبير من السلطة على القبائل الكازاخستانية، لكنه لم يكن مؤيداً لمزيدٍ من الفتوح كما أشار نايت؛ لهذا السبب لم يكن عميلاً للإمبراطورية. يُطالب نايت بدليلٍ على العلاقة بين المعرفة والسلطة على مثل هذا المستوى الفعَّال، حتَّى إنَّ إصدار المُستشرقين أوامر إلى القوات العسكرية لغزو مناطق يملكون خبرةً بشأنها لن يُرضيه، ويبدو أنَّ حُجَّته بأنَّ الاستشراق لا يمكن أنْ يُمارس سلطته بمعزلٍ عن خدمة الدولة؛ لأنَّ التخصصات في روسيا ليست مستقلةً عن الدولة، تتمتَّع بثُقلٍ أكبر، لكنها لا تزال علاقة مثار شك.

لا تستند حجَّة سعيد إلى السلطة التخصصية للاستشراق الأكاديمي والمهني بدلاً من ذلك، في مناقشة «القوة المحضة المحبوكة لخطاب الاستشراق»، فإنَّ سعيد مهتمٌ أكثر بإظهار كيف أنَّ التخصص لم يكن مستقلاً عن الدولة بقدر ما تدَّعيه الصورة التي وضعها لنفسهِ، وفي روسيا بقدر ما في بريطانيا أو فرنسا، وجدت الدولة أنَّ الخبرة في الاستشراق مفيدة لأهدافها، وبالتالي وفَّرت للمُستشرقين وسيلةً للسلطة.

يتحدث نايت عن «خصوصية» الاستشراق الروسي، والتي جعلته مجسماً بشكلٍ أكبر من نُظرائهِ، إنَّ القول بأنَّ الاستشراق أوجد خطاباً متجانساً في الشرق لا يعني الادعاء بأنَّ جميع وجهات نظر المُستشرقين في الشرق كانت متطابقة أو متجانسة، أو أنَّ المُستشرقين لم يتمكَّنوا من التمييز بين الأنواع المختلفة من الشرقيين، كان الاستشراق البريطاني يعرف جيداً الفرق بين البابو البنغالي Bengali babu (لقب مخاطبة هندي بمعنى السيد)

والبشتان Pashtuns (Pathans) (الأفغاني المُقيم في الهند)، أو بين البدوي والقاهري (مَن يسكن مدينة القاهرة). كان هذا جوهر المؤسَّسة الاستشراقية. ومع ذلك على الرغم من كلِّ اختلافاتهم بقيت هذهِ الشرقيات المختلفة شرقية، مزروعةً بحزمٍ على الجانب الخطأ من الانقسام الحضاري بتأثير فطرتهم وشرقيتهم الجوهرية، يبدو أنَّ نايت كان يعتقد أنَّ المُستشرقين في أوروبا الغربية كانوا يرون أنَّ جوهر الشرق كان عنصرياً.

إلى حدٍ ما، كان يُنظر إلى الجوهر، على أنَّه حضارياً في المقام الأول حيث كان الشرقيون شرقيين؛ لأنَّهم ينتمون إلى حضارةٍ لا تملك إمكانية التطور التاريخي، حيث لم تكن (أو توقفت من زمنٍ طويل) عن كونها جزءٍ من التاريخ.

قد يبدو لم تكن العنصرية ضرورية للحفاظ على هذا الانقسام الثنائي حتى مع احتمالية ان يكون خطاب الآخر عنصرياً، هذا هو السبب في أنَّ البريطانيين يمكن أنْ يعترفوا بالأصول الهندو أوروبية للهند، في حين أنَّ هذهِ الحقيقة لم تغير من شرقية الهند، تتناسب التصنيفات الخيالية للأُمَّة المتناغمة تناسباً تامَّاً مع الرؤية الثنائية للاستشراق. إذا كان أيِّ شيء، فقد تمَّ استثمار الخطاب الاستشراقي بشكلٍ كبير في المفاهيم الخيالية عن الأصالة، والتي أخذ المُستشرق على عاتقهِ الحفاظ عليها ومراقبتها، قد تكون لكلِّ أُمَّةٍ مسارها الخاص عِبرَ التاريخ، لكن ليس هناك ما يضمن أنَّ لديهم جميعاً مصائر متشابهة، ناهيك عن مصائر متماثلة، وبالتالي «أُناسٌ بلا تاريخ»، ومن هنا الشرقيون.

روسيا وأوروبا

من الواضح أنَّ القول بأنَّ روسيا لا تتناسب مع ثنائية الشرق / الغرب؛ لأنَّها ليست من الغرب حقاً، وأنَّ الاستشراق الروسي كان «ذا خصوصيةٍ»؛ لأنَّه يختلف عن فرضيات النسخة الأوروبية «الحقيقية»، قد وضَّح حدود أوروبا نفسها. كما أتفق أدناه، فإنَّ هذا الوضوح هو في حدِّ ذاتهِ عمل الاستشراق، لكن الآن اسمحوا لي أنْ أتساءل عن فرضية الاختلاف بطريقةٍ مختلفة، ومنذ أوائل القرن التاسع عشر ناقش بعض المثقفين الروس اختلاف روسيا عن أوروبا، وكثيراً ما اتخذ المؤرِّخون في روسيا الوجه الظاهري من تأكيد هذا الاختلاف، بدون استقصاء الأهداف الخطابية التي يخدمها.

نميل في أغلب الأحيان إلى التغاضي عن الحقيقة الواضحة التي تكمن في أنَّ هذا الادعاء يُعبِّر عن الموقف المتجذِّر في الخيال الألماني، ومنذ القرن الثامن عشر ظهر مفكِّرون روس، بمن فيهم أولئك الذين يؤكِّدون الفرق بين روسيا وأوروبا، كانوا نتاج تعليمٍ يختلف قليلاً عمَّا حصل عليه نُظرائهم في بقيةِ أوروبا، بالنسبة لي يبدو الأمر مثمراً بشكلٍ أكبر لرؤية التطورات الروسية بتنوعاتها تجاه عموم أوروبا أكثر من كونها مختلفةً بطبيعتها (بسبب تأصلها).

ان هذه الحقيقة تمثل أهميةً خاصة فيما يتعلَّق بمسألة الاستشراق، والنتيجة المنطقية لتأكيد الاختلاف مع أوروبا هي في الغالب الادعاء بأنَّ روسيا لها صلةٌ خاصة بآسيا، الشيء ان الأمر الجدير بالادراك هنا هو ان الادعاء الأخير، وهذه حقيقة الخطاب الروسي تجاه آسيا، لا شأن له بآسيا سوى

بشيء قليل حيث ان كل شيء يتعلَّق بعلاقة روسيا غير المستقرة، والتي غالباً ما تكون غير متبادلة مع أوروبا. مع ذلك فإنَّ «التقارب» مع آسيا لم يكن أكثر من مجرد مبرِّر للغزو، وكان متداخلاً دائماً مع القلق بشأن أوروبا. في كلمات دوستويفسكي(*) التي نُقلت عنه كثيراً، «في أوروبا، نحن متطفلون وعبيد، لكن في آسيا نحن أسياد، في أوروبا، نحن التتار، ولكن في آسيا نحن أيضاً أوروبيون»(١٤).

ولا ينبغي لنا أنْ نتجاهل حقيقة أنَّه في بداية القرن التاسع عشر أصبح الشرق (فوستوك) (Vostok) فئةً تحليلية أثبتت نفسها في الفكر الروسي، مع ارتباطها بالاستبداد والتعصب والخداع والعنف والإثارة الجنسية، وهذا ما لم يكن مختلفاً عمَّا في بقية أوروبا.

ستكون مهمةً بحثيةً مثمرة للغاية للحقل الروسي لدراسة السبب في أنَّ مفهوم فوستوك (وهي محطَّة أبحاث روسية تقع في القارة القطبية) كان يتمثل في منح المرونة للفكر الروسي والطرق التي تمَّ استخدامها لنشرهِ مع مرور الوقت، حتَّى الاندفاع العالمي للثورة الروسية لم يهزم فكرة فوستوك (كان هناك ما يكفي من الاستشراق عند ماركس Marx لضمان ذلك)، على الرغم من أنَّه لم يكن بالإمكان إخضاع هذا المفهوم للمشروع العالمي بيُسر، وعاد إلى مركز الصدارة في فترةٍ ما بعد الاتحاد السوفيتي، لا يوجد مثال أفضل على ذلك من مجلَّة Narody Azii i Afriki، ففي لحظةِ تحررها من القيود الإيديولوجية سارعت إلى تغيير اسمها إلى Vostok / Oriens، وكانت العلامة اللاتينية تصريحٌ واضح عن اختيارها الذاتي لوقوفها إلى الجانب الصحيح من الانقسام الحضاري.

الاستشراق

وختاماً لهذا البحث، أود أنْ أقترح بعض مجالاتٍ أخرى والتي قد تكون فيها الأفكار المتولِّدة في الأدبيات عن الاستشراق ذات صلةٍ بمجالنا. إنَّ «الجغرافيا المجازية» (imaginative geography) التي يقوم عليها الانقسام بين أوروبا والشرق مرنةً للغاية. لقد اكتشف الباحثون منذ زمنٍ سعيد كيف تتغير هذهِ الحدود، وما هو العمل الإيديولوجي الذي يقوم بهِ الاستشراق، عند نهايات هذا الحقل ظهر عملٌ مُثمر للغاية. فقد أظهر لاري وولف Larry Wolff كيف تشكَّلت أوروبا الشرقية خلال عصر التنوير بشكلٍ أظهر كونها مختلفةً بطبيعتها، وأنَّها الجزء الشرقي الداخلي من أوروبا، في حين تحرَّت ماريا تودوروفا Maria Todorova المكان الذي احتلته البلقان في المُعتقد التقليدي الغربي، حيث سلَّطت

(*) يقصد بهِ: فيودور دوستويفسكي Fyodor Mikhailovich Dostoevsky (١٨٢١-١٨٨١م): الروائي وكاتب القصص القصيرة والصحفي والفيلسوف الروسي، وهو واحدٌ من أشهر الكُتاب والمؤلِّفين حول العالم. رواياته تحوي فهماً عميقاً للنفس البشرية كما تقدم تحليلاً ثاقباً للحالة السياسية والاجتماعية والروحية لروسيا في القرن التاسع عشر، وتتعامل مع مجموعةٍ متنوعة من المواضيع الفلسفية والدينية. [المحرر]. لمزيدٍ من التفاصيل، يُنظر:

Cassedy, Steven, Dostoevsky›s Religion, Stanford University Press, 2005; Cicovacki, Predrag, Dostoevsky and the Affirmation of Life, Transaction Publishers, Jones, Malcolm V., 2012; Terry, Garth M., New Essays on Dostoyevsky, Cambridge University Press, 2010.

الضوء على الاختلافات بين ما تدعوه بـ «البلقنة» والاستشراق المُتعارف عليه، لقد كان عملها مثالاً رائعاً على الطريقة التي يمكن بها التعاطي بتعاطف، وفي الوقت نفسهِ بصورةٍ نقدية مع رؤى سعيد، من أجل التوسع في تحليلها وصقلها[١٥]، وعلى الرغم من أنَّ الاستشراق يضع مسافةً حضاريةً مُطلقة، إلَّا أنَّه يمكن نشره بطُرقٍ معقَّدة للغاية.

دَرَست ميليكا باكيتش – هايدن Milica Bakić-Hayden كيف نجح هذا الخطاب في يوغوسلافيا السابقة، حين فرض الكروات الاستشراق على الصرب (لحكمهم من قبل العثمانيين وكونهم أرثوذكس)، وفرض الصرب الاستشراق على مُسلمي البوسنة (لكونهم مسلمين، ومن ثمَّ آسيويين)[١٦]، هذهِ الأساليب للأسف لم تجد لها أيَّ صدىً في المجال الروسي، ومع ذلك فمن الواضح أنَّ هذا الأمر شكَّل مصدر قلقٍ رئيسي في تأريخ روسيا نفسها. فالنقاش على سبيل المثال حول تقييم العلاقة التاريخية لروسيا مع السهوب يدور حول الاستشراق، أولئك الذين يزعمون أنَّ علاقات روس كييف مع سكَّان السهوب لم تكن سوى علاقاتٍ عدائية، وأنَّ سكَّان موسكو لم يستعيروا شيئاً من سكَّان منغوليا، يسعون لدرءِ وصمة الارتباط بالشرق، ومن ثمَّ التأكيد على مكانة روسيا في أوروبا.

من ناحيةٍ أخرى فإنَّ الاعتراف بعلاقة موسكو مع المغول، ليس مجرد اعترافٍ بتعقيد التاريخ، ولكن جاء في المقام الأول بوصفهِ حكم على مُستشرقي موسكو (وبالتالي مُستشرقي روسيا). ومع ذلك، نادراً ما يتم إدراك هذهِ الحقيقة التاريخية في التأريخ الحالي.

نحتاج أيضاً إلى الاعتراف بظاهرةٍ شائعة جداً في الفكر الروسي وهي ظاهرة الاستشراق الذاتي، رغم أنَّها ليست بغريبةٍ عنه، يمكن أنْ يؤثر الاستشراق الذاتي على قياس المواقف، لتتراوح تلك المواقف بين من الحزن «أي أمل يملكه الشرقيون أمثالنا» إلى الموقف البطولي «نحن أفضل من الغرب»، ولكن في كلِّ حالة، يعتمد ذلك على ثنائية أوروبا / الغرب، وآسيا / الشرق، تتمثل المهمة البحثية المُثمرة في دراسة الاستخدام البلاغي الذي توضع هذهِ الثنائية في سياقهِ، مع الأخذ في الاعتبار أصول هذهِ الثُنائية في التقليد الأوروبي.

في نهاية المطاف، فإنَّ الطريق إلى ما بعد الثُنائية ليس من خلال إزالة الغموض عن مفهوم الشرق، بل على العكس من ذلك، بإزالتهِ عن ذلك الكيان الشمولي المُنبثق من خطاب الاستشراق ألا وهو الغرب، من نتائج مناقشة الاستشراق والتي لم يكن بالإمكان التنبوء بها حتَّى من قبل سعيد نفسه، هي عدم استقرار وتأريخانية المفاهيم المتداخلة للـ(الغرب) و (أوروبا). كما صرَّحت ميادة يوجين أوغلو Meyda Yegenoglu، من ضمن آخرين، إنَّ الاستشراق جعل من الغرب موضوعاً كونياً للتاريخ[١٧]. إنَّ هذا الموضوع الكوني يتطلَّب معارضاً، وهذهِ المعارضة تجعل من الممكن لسياسات التملُّك بأجمعها التي تنطوي على استشراق الآخرين لتأكيد مكانة الغرب في التاريخ. إنَّها حقيقة واقعة أنَّ الغرب واجهة صلدة، إنَّ أوروبا هي التي حدَّدت بمُقتضى الاتفاقية الجغرافية ورسم الخرائط المكانة القاريَّة لأراضي شبه الجزيرة الأوروآسيوية، بينما تظل المناطق المعقدة والمكتظة بالسكَّان، مثل جنوب آسيا، في أحسن الأحوال شبه قارية[١٨].

بمُجرد أنْ نعترف بتحايل «أوروبا» و «الغرب»، وكذلك «آسيا» و «الشرق»، يمكننا أنْ ننتقل إلى سياسات نشرها ونضع جانباً من الأساطير الخاصة بالتفرد الروسي.

الهوامش والتعليقات:

(*) Khalid, Adeeb, "Russian History and the Debate over Orientalism", Kritika: Explorations in Russian History, Published by: Slavica Publishers, Vol. 1, No. 4, Fall 2000, pp.691-699.

استفادت هذهِ المقالة من الملاحظات الثاقبة لكاثرين بيورك Katharine Bjork ، وفالنتين بوغوروف Valentine Bogorov ، وشيريل دونكان Sheryl Duncan . [المؤلِّف].

(1) Adeeb Khalid, *The Politics of Muslim Cultural Reform: Jadidism in Central Asia*, Berkeley: University of California Press, 1998, pp.87–89.

(2) O'zbekiston Respublikasi Markaziy Davlat arxivi, Tashkent, f. 1009.

(3) Edward W. Said, *Orientalism* (New York: Random House, 1978).

(٤) كتبت سوزان ليتون Suzan Layton في هذا السياق، على نحوٍ أكثر توسعاً من العلماء الآخرين، فقد كتبت أيضاً، إضافةً إلى (**الأدب الروسي والإمبراطورية: غزو القوقاز من بوشكين إلى تولستوي**)

Russian Literature and Empire: Conquest of the Caucasus from Pushkin to Tolstoy (Cambridge: Cambridge University Press, 1994)

مقالاتٍ عديدة. راجع أيضاً:

Monika Greenleaf, *Pushkin and Romantic Fashion: Fragment, Elegy, Orient, Irony*, Stanford: Stanford University Press, 1994; Katya Hokanson, "*Literary Imperialism, Narodnost¢, and Pushkin's*

Invention of the Caucasus", Russian Review 53: 3, 1994, pp.336–52.

(5) Yuri Slezkine, *Arctic Mirrors: Russia and the Small Peoples of the North*, Ithaca: Cornell University Press, 1994; Daniel R. Brower and Edward J. Lazzerini, eds., *Russia's Orient: Imperial Borderlands and Peoples, 1700–1917*, Bloomington: Indiana University Press, 1997; Mark Bassin, *Imperial Visions: Nationalist Imagination and Geographical Expansion in the Russian Far East 1840–1865*, Cambridge: Cambridge University Press, 1999. Other scholars have dealt with imperial questions from within the established historiography of Russia. For an example of this literature, see

Catherine B. Clay, "*Russian Ethnographers in the Service of Empire 1856–1862*", Slavic Review, 54: 1, (Spring 1995), pp.45–61.

(6) Nathaniel Knight, "*Grigor¢ev in Orenburg, 1851–1862: Russian Orientalism in the Service of*

Empire ?", Slavic Review, 59: 1 (Spring 2000), p.97.

(٧) أثار ديفيد جايوني مور David Chioni Moore هذهِ النقطة: «هل أنَّ مفردة (ما بعد post) في مصطلح (ما بعد الاستعمار postcolonial)، هي ذاتها في مصطلح (ما بعد الاتحاد السوفيتي – Post Soviet)؟». نحو نقدٍ عالمي لمرحلة ما بعد الاستعمار.

PMLA, 116 (2001), forthcoming.

(8) Said, *Orientalism*, pp.2–3.

(٩) لإلقاء نظرةٍ عامة ممتازة على نطاق الآراء ذات الصلة الوثيقة لمفاهيم (الشرق) و (المشرق) و (آسيا)، راجع:

Martin W. Lewis and Karen E. Wigen, *The Myth of Continents: A Critique of Metageography*, Berkeley: University of California Press, 1997, chap. 3.

(10) Said, *Orientalism*, p.23.

(11) Ibid., p.17.

(12) Idem, *Culture and Imperialism*, New York: Knopf, 1993, p.10.

(13) Gyan Prakash, "*Orientalism* Now", *History and Theory*, 34: 3, 1995, pp.202–03.

(14) Fedor Mikhailovich Dostoevskii, "*Geok Tepe. Chto dlia nas Aziia*", Polnoe sobranie sochinenii, vol. 27, (Leningrad: Nauka, 1972–90), pp.32–40.

(15) Larry Wolff, *Inventing Eastern Europe: The Map of Civilization on the Mind of the Enlightenment*, Stanford: Stanford University Press, 1994; Maria Todorova, *Imagining the Balkans*, New York: Oxford University Press, 1997.

(16) Milica Bakiç-Hayden, "*Nesting Orientalisms: The Case of the Former Yugoslavia*", Slavic Review, 54: 4, 1995, pp.917–31; see also: Milica Bakiç-Hayden and Robert Hayden, "*Orientalist Variations on the Theme 'Balkans': Symbolic Geography in Recent Yugoslav Cultural Politics*", Slavic Review 51: 1, (Spring 1992), pp.1–15.

(17) Meyda Yeg˘enog˘lu, *Colonial Fantasies: Toward a Feminist Reading of Orientalism*, Cambridge: Cambridge University Press, 1997. On the commonplace, unselfconscious "occidentalization" of the West, see: James G. Carrier, "*Occidentalism: The World Turned Upside-Down*", American Ethnologist 19: 2, 1992, pp.195–212; and idem, ed., *Occidentalism: Images of the West*, Oxford: Clarendon Press, 1995.

(18) Lewis and Wigen, *The Myth of Continents*, chap. 1. For an exceptionally astute examination of these issues, see the magisterial study by: Marshall G. S. Hodgson, *The Venture of Islam: Conscience*

and History in a World Civilization, 3 vols. Chicago: University of Chicago Press, 1974.